لن تراني

بقلم: أيمن مسعود

هكـذا رد اللـه -سـبحانه وتعـالى- عـلى كليمـه: سـيدنا مـوسى -عليـه السـلام- الـذي كان يطمـح إلى الجـمال لا الإيمـان.. فمـوسى كليـم اللـه؛ لم يكـن يبحـث عـن دليـل إيمـاني عـلى وجـود اللـه، بقـدر مـا كان يبحـث عـن الاسـتمتاع بالنظـر إلى وجـه اللـه سـبحانه وتعـالى.. ومـوسى كان يعلـم يقينًـا أنـه غـير مؤهـل لهـذه النظـرة إلى اللـه، فطلـب أن «يُرِيَـهُ» اللـه، فقـال: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُـرْ إِلَيْـكَ»، أي: اجعلنـي مؤهـلاً للنظـر إليـك!

وعـلى هـذا فـلا تكـون الرؤيـة إلا منحـة وعطيـة مـن اللـه تعـالى لعبـاده الذيـن اصطفاهم بعـد أن أصبحـوا مؤهلـين لذلـك.. وعبـاد اللـه الذيـن مَـنَّ عليهـم بذلـك كثـيرون، منهـم مـن يعرفهـم النـاس مـن كراماتهـم، ومنهـم مـن يسـتخفي عـن النـاس!! منهـم مـن تغلب الفرحـةُ عقلَـه فيهيـم عـلى وجهـه، ومنهـم مـن يسـكن إلى العبـادة ليسـتزيد قربًـا! منهـم مـن اكتفـى بالإشـارة، ومنهـم مـن لم يـرضَ إلا بالقوسـين، كـما ارتفـع محمـد -صـلى اللـه عليـه وسـلم-، فـكان «قَـابَ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنَى».

هنـا وفي هـذا المقـام، لم يَـرَ محمـد -صـلى اللـه عليـه وسـلم- ربـه، ولكنـه رأى بـه! قـال حـين سـئل عـن ذلـك: «نـور أَنَّى أراه؟!»، ولكنـه كان بـصره الـذي يبـصر بـه، وسـمعه الـذي يسـمع بهـا... كان في هـذه الرؤيـة خـلاص مـن التعلـق بمـا سـوى اللـه، وكان فيهـا رضى باللـه عمـن سـواه.. لم يكـن أفضـل منهـا ينتشـل محمـدًا مـن ضغـوط الحيـاة سـوى هـذه النظـرة إلى المقـام الجليـل، وأن ينغمـس في هـذا النـور الـذي لا ظـل لـه!

إن هـذه الحالـة ليسـت قـاصرة عـلى النبـي الكريـم -صـلى اللـه عليـه وسـلم- وإن كان المقـام لـه وحـده، فلـم يحـرم اللـه -تعـالى- عبـاده مـن هـذا الشـعور، فأراهـم آياتـه، ليكتفـي بهـا مـن يكتفـي، وينجـذب مـن ينجـذب!! فسـار في طريقـه علـماء؛ اسـتدلوا عليـه، وسـار في طريقـه عارفـون اسـتدلوا بـه!! وشـتان مـا بـين الفريقـين، وكلاهـما عـلى خـير.

مـا بـين فريـق يقـف باللغـة عنـد حـدود اللفـظ، ويقـف بالمعنـى عنـد حـدود النـص، وفريـق آخـر يتجـاوز بـه الوصـلُ مـا يمنعـه الواقـع، فيقـول للـه دون أن يـشرح، فهـو يؤمـن أن اللـه تعـالى جَـلَّ عـن أن يُـشرح لـه، فهـو يعلـم الـسر وأخفـى.. ينطـق عـن اللـه بمـا يـراه العابـرون عـلى حـدود اللفـظ تجـاوزًا، وهـو لا يـرى إلا الكشـف عـن أغـوار النفـس، والاسـتزادة مـن النـور، والانغـماس فيـه!

لا مكان في هذا المقام للخطيئة اللفظية بين الواصل والموصول فيه، فالواصل يعلم مقصد الموصول، بل هو من يمنحه اللغة التي يقول بها، وهو من يكشف أو يخفي، فقد يقف اثنان على مسافة واحدة من القرب، فلا يريان الرؤية ذاتها!! إنه لا رؤية إلا بالله! ولا وصل إلا به.. فلا يرى الرائي باجتهاده ولا بذاته ولا بمؤهلاته... إنما يرى بقبول الله له، وبمدى هذا القبول يرتقي وتنكشف له الحقيقة، فيستقر أو ينجذب، ويرى ويُري غيره.. أو يرى فينسى.. أو يرى فيمنعه ما رآه عن رؤية غيره!

إذا أردت أن ترى الله، فاسأله، واعلم أن الطريق التي سلكها غيرك فوصل ليست بالضرورة طريقك التي يجب أن تسلكها، فربما تسلكها وتضل، فقد سلكها غيرك بمؤهلاته هو، وليس بمؤهلاتك أنت!! ابحث إذن في داخلك عن الله، وخاطبه «كأنك تراه»!

اللهم ارزقنا رؤيتك